مَوْقِعُ جَامِعَةِ مِنْهَاجِ النُّبُوَّةِ

www.menhag-un.com

يُقَدِّمُ:

(الْمُحَاضَرَة الْخَامِسَة عَشْرَة)

مِنْ مَادَّةِ

أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآن

www.menhag-un.com

جامعة
منهاج النبوة
www.menhag-un.com

كَيْفِيَّةُ التَّفَكُّرِ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ

فَبَعْدَ أَنْ مَنَّ اللهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ عَلَيْنَا بِالنَّظَرِ فِيمَا يَتَعَلَّقُ بِتَدَبُّرِ الْكِتَابِ الْعَزِيزِ؛ خَلُصْنَا بِحَوْلِ اللهِ وَقُوَّتِهِ إِلَىٰ بَعْضِ النَّمَاذِجِ الَّتِي تُحْتَذَىٰ فِيمَا يَتَعَلَّقُ بِتَدَبُّرِ آيَاتِ الْكِتَابِ الْمَجِيدِ، وَهَذِهِ صُورَةٌ تَتَعَلَّقُ بِكَيْفِيَّةِ التَّفَكُّرِ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ:

لَقَدْ أَمَرَ النَّبِيُّ ﷺ بِالتَّفَكُّرِ فِي خَلْقِهِ تَعَالَىٰ، وَثَبَتَ عَنْهُ ﷺ أَنَّهُ قَالَ: «**تَفَكَّرُوا فِي آلَاءِ اللهِ، وَلَا تَفَكَّرُوا فِي اللهِ ﷻ**».

وَهَذَا الْحَدِيثُ قَوَّاهُ السَّخَاوِيُّ كَمَا فِي «الْمَقَاصِدِ الْحَسَنَةِ»، وَجَوَّدَهُ الْحَافِظُ ابْنُ حَجَرٍ، وَحَسَّنَهُ الْأَلْبَانِيُّ فِي «السِّلْسِلَةِ الصَّحِيحَةِ».

«**تَفَكَّرُوا فِي آلَاءِ اللهِ، وَلَا تَفَكَّرُوا فِي اللهِ ﷻ**».

لَقَدْ عَلَّمَنَا كَيْفِيَّةَ التَّفَكُّرِ، إِنَّهَا حِكْمَةُ التَّفَكُّرِ، وَتَفَكُّرُ الْحِكْمَةِ.

وَبَيَّنَ اللهُ تَعَالَىٰ صِفَاتِ أُولِي الْأَلْبَابِ، أَيِ الْعُقُولِ السَّلِيمَةِ، وَمِنْهَا فِي قَوْلِهِ جَلَّ وَعَلَا: ﴿**إِن فِي خلق السماوات والأرض واختلاف الليل والنهار لآيات لأولي الألباب * الذين يذكرون الله قياما وقعودا وعلىٰ جنوبهم ويتفكرون فِي خلق السماوات والأرض ربنا ما خلقت هذا باطلا سبحانك فقنا عذاب النار**﴾ [**آل عمران: ١٩٠-١٩١**].

فَهَذِهِ الْمَخْلُوقَاتِ الْكُبْرَىٰ بَرَاهِينُ سَاطِعَةٌ عَلَىٰ عَظَمَةِ الْخَالِقِ جَلَّ وَعَلَا.

قَالَ سُبْحَانَهُ: ﴿**إن فِي خلق السماوات والأرض واختلاف الليل والنهار والفلك التي تجري فِي البحر بما ينفع الناس وما أنزل الله من السماء من ماء فأحيا به الأرض بعد موتها وبث فيها من كل دابة وتصريف الرياح والسحاب المسخر بين السماء والأرض لآيات لقوم يعقلون**﴾ [البقرة:١٦٤].

وَهَذِهِ الْآيَاتُ نَتَقَلَّبُ فِي نِعَمِهَا، وَلَا تَنْفَكُّ عَنَّا السَّمَاوَاتُ وَالْأَرْضُ، وَلَا اللَّيْلُ وَلَا النَّهَارُ، فَأَيْنَمَا كُنَّا وَمَتَىٰ كُنَّا؛ فَنَحْنُ بَيْنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ، وَمَعَ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ.

وَحِينَمَا نَتَفَكَّرُ فِي هَذِهِ الْعَظَمَةِ فِي هَذِهِ الْمَخْلُوقَاتِ نُرَدِّدُ قَوْلَ اللهِ تَعَالَىٰ الْمُتَقَدِّمَ فِي سُورَةِ آلِ عِمْرَانَ، وَهُوَ فِعْلُ رَسُولِ اللهِ ﷺ، فَقَدْ كَانَ يُكَرِّرُ النَّظَرَ فِي السَّمَاءِ، وَكُلَّمَا نَظَرَ قَرَأَ هَاتَيْنِ الْآيَتَيْنِ، فَقَدْ صَحَّ عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا أَنَّهُ بَاتَ عِنْدَ النَّبِيِّ ﷺ ذَاتَ لَيْلَةٍ، فَقَامَ نَبِيُّ اللهِ ﷺ مِنْ آخِرِ اللَّيْلِ، فَخَرَجَ، فَنَظَرَ فِي السَّمَاءِ، ثُمَّ تَلَا هَذِهِ الْآيَةَ مِنْ آلِ عِمْرَانَ:

﴿**إن فِي خلق السماوات والأرض واختلاف الليل والنهار**﴾، حَتَّىٰ بَلَغَ ﴿**فقنا عذاب النار**﴾، ثُمَّ رَجَعَ إِلَىٰ الْبَيْتِ فَتَسَوَّكَ وَتَوَضَّأَ، ثُمَّ قَامَ فَصَلَّىٰ، ثُمَّ اضْطَجَعَ، ثُمَّ قَامَ فَنَظَرَ إِلَىٰ السَّمَاءِ، ثُمَّ رَجَعَ فَتَسَوَّكَ فَتَوَضَّأَ، ثُمَّ قَامَ فَصَلَّىٰ ﷺ. وَالْحَدِيثُ أَخْرَجَهُ مُسْلِمٌ فِي «صَحِيحِهِ».

بَعْدَ هَاتَيْنِ الْآيَتَيْنِ ذَكَرَ اللهُ تَعَالَىٰ تَتِمَّةَ الدُّعَاءِ، ثُمَّ خَتَمَهُ بِقَوْلِهِ سُبْحَانَهُ: ﴿**فاستجاب لهم ربهم أني لا أضيع عمل عامل منكم**﴾ [آل عمران:١٩٥]. وَهَذِهِ بُشْرَىٰ بِالِاسْتِجَابَةِ لِذَلِكَ الدُّعَاءِ.

فَنَسْأَلُ اللهَ تَعَالَىٰ أَنْ يَزِيدَنَا تَدَبُّرًا، وَأَنْ يَتَقَبَّلَ مِنَّا.

وَقَدْ ثَبَتَ عَنْ رَسُولِ اللهِ ﷺ فِي هَذِهِ الْآيَةِ أَنَّهُ قَالَ: «**وَيْلٌ لِمَنْ قَرَأَهَا وَلَمْ يَتَفَكَّرْ بِهَا**».

﴿**إن فِي خلق السماوات والأرض واختلاف الليل والنهار لآيات لأولي الألباب**﴾، وَفِيهَا الْوَعِيدُ لِمَنْ لَمْ يَتَفَكَّرْ بِهَذِهِ الْآيَةِ وَنَظَائِرِهَا.

وَقَدْ سُئِلَ الْأَوْزَاعِيُّ عَنِ الْآيَةِ نَفْسِهَا: مَا غَايَةُ التَّفَكُّرِ فِيهَا؟ قَالَ -يَعْنِي تِلْكَ الْآيَاتِ-: «يَقْرَأُهُنَّ وَهُوَ يَعْقِلُهُنَّ».

وَسَأَلَهُ عَبْدُ الرَّحْمَنِ بْنُ سُلَيْمَانَ أَيْضًا فَقَالَ: «سَأَلْتُ الْأَوْزَاعِيَّ عَنْ أَدْنَىٰ مَا يَتَعَلَّقُ بِهِ الْمُتَعَلِّقُ مِنَ الْفِكْرِ فِيهِنَّ، وَمَا يُنْجِيهِ مِنْ هَذَا الْوَيْلِ؟ قَالَ: فَأَطْرَقَ هُنَيْهَةً ثُمَّ قَالَ: يَقْرَأُهُنَّ يَعْقِلُهُنَّ».

www.menhag-un.com

مِنْ هَدْيِ النَّبِيِّ ﷺ فِي قِرَاءَةِ الْقُرْآنِ وَتَدَبُّرِهِ

وَمِنْ هَدْيِ النَّبِيِّ ﷺ فِي قِرَاءَةِ الْقُرْآنِ وَتَدَبُّرِهِ مَا ثَبَتَ عَنْ حُذَيْفَةَ رضي الله عنه: «كَانَ إِذَا مَرَّ بِآيَةِ رَحْمَةٍ اسْتَبْشَرَ وَسَأَلَ، وَإِذَا مَرَّ بِآيَةِ عَذَابٍ أَشْفَقَ وَتَعَوَّذَ، وَإِذَا مَرَّ بِآيَةٍ تَنْزِيهٍ نَزَّهَ وَسَبَّحَ»، أَخْرَجَهُ الْمَرْوَزِيُّ فِي «تَعْظِيمِ قَدْرِ الصَّلَاةِ» بِسَنَدٍ صَحِيحٍ.

وَعَنْ حُذَيْفَةَ رضي الله عنه قَالَ: «صَلَّيْتُ مَعَ النَّبِيِّ ﷺ ذَاتَ لَيْلَةٍ، فَافْتَتَحَ الْبَقَرَةَ، فَقُلْتُ: يَرْكَعُ عِنْدَ الْمِائَةِ، ثُمَّ مَضَىٰ، فَقُلْتُ: يُصَلِّي بِهَا فِي رَكْعَةٍ، ثُمَّ مَضَىٰ، فَقُلْتُ: يَرْكَعُ بِهَا، ثُمَّ افْتَتَحَ سُورَةَ النِّسَاءِ فَقَرَأَهَا، ثُمَّ افْتَتَحَ آلَ عِمْرَانَ فَقَرَأَهَا، يَقْرَأُ مُتَرَسِّلًا، إِذَا مَرَّ بِآيَةٍ فِيهَا تَسْبِيحٌ سَبَّحَ، وَإِذَا مَرَّ بِسُؤَالٍ سَأَلَ، وَإِذَا مَرَّ بِتَعَوُّذٍ تَعَوَّذَ.

ثُمَّ رَكَعَ، فَجَعَلَ يَقُولُ: سُبْحَانَ رَبِّيَ الْعَظِيمِ، فَكَانَ رُكُوعُهُ نَحْوًا مِنْ قِيَامِهِ، ثُمَّ قَالَ: سَمِعَ اللهُ لِمَنْ حَمِدَهُ، ثُمَّ قَامَ طَوِيلًا قَرِيبًا مِمَّا رَكَعَ، ثُمَّ سَجَدَ فَقَالَ: سُبْحَانَ رَبِّيَ الْأَعْلَىٰ، فَكَانَ سُجُودُهُ قَرِيبًا مِنْ قِيَامِهِ»، رَوَاهُ مُسْلِمٌ.

وَهَذَا مِنْ أَرْقَىٰ الْأَسَالِيبِ فِي التَّمَرُّنِ عَلَىٰ التَّدَبُّرِ عِنْدَ قِرَاءَةِ الْقُرْآنِ الْمَجِيدِ.

«إِذَا مَرَّ بِآيَةٍ فِيهَا تَسْبِيحٌ سَبَّحَ، وَإِذَا مَرَّ بِسُؤَالٍ سَأَلَ، وَإِذَا مَرَّ بِتَعَوُّذٍ تَعَوَّذَ».

قِرَاءَةُ التَّدَبُّرِ، وَتَدَبُّرُ الْقِرَاءَةِ.

قَالَ الْبَغَوِيُّ بَعْدَ أَنْ ذَكَرَ حَدِيثَ حُذَيْفَةَ رضي الله عنه مَرْفُوعًا، قَالَ فِي التَّدَبُّرِ: «الْمُسْتَحَبُّ لِلْقَارِئِ فِي الصَّلَاةِ وَغَيْرِ الصَّلَاةِ هَذَا: إِذَا قَرَأَ آيَةَ رَحْمَةٍ أَنْ يَسْأَلَ، أَوْ آيَةَ عَذَابٍ أَنْ يَتَعَوَّذَ، أَوْ آيَةَ تَسْبِيحٍ أَنْ يُسَبِّحَ»، وَبِنَحْوِ هَذَا الْقَوْلِ قَالَ غَيْرُهُ مِنْ أَهْلِ الْعِلْمِ.

فَقَدْ قَالَ النَّوَوِيُّ: «قَالَ أَصْحَابُنَا رحمهم الله: وَيُسْتَحَبُّ هَذَا السُّؤَالُ وَالِاسْتِعَاذَةُ وَالتَّسْبِيحُ لِكُلِّ قَارِئٍ، سَوَاءٌ كَانَ فِي الصَّلَاةِ أَوْ خَارِجًا عَنْهَا.

قَالُوا: وَيُسْتَحَبُّ ذَلِكَ فِي صَلَاةِ الْمَأْمُومِ وَالْإِمَامِ وَالْمُنْفَرِدِ؛ لِأَنَّهُ دُعَاءٌ، فَاسْتَوَوْا فِيهِ، كَالتَّأْمِينِ عَقِبَ الْفَاتِحَةِ، وَكَذَلِكَ عِنْدَ نُزُولِ بَعْضِ آيَاتِ الْوَعِيدِ وَالتَّهْدِيدِ، فَقَدْ كَانَ يَتَعَوَّذُ بِوَجْهِ اللهِ تَعَالَىٰ، فَقَدْ ثَبَتَ عَنْ جَابِرٍ رضي الله عنه قَالَ:

«لَمَّا نَزَلَتْ هَذِهِ الْآيَةُ: ﴿**قل هو القادر علىٰ أن يبعث عليكم عذابا من فوقكم**﴾ قَالَ: رَسُولُ اللهِ ﷺ: «**أَعُوذُ بِوَجْهِكَ**»، **قَالَ:** ﴿**أو من تحت أرجلكم**﴾ **قَالَ:** «**أَعُوذُ بِوَجْهِكَ**»، رَوَاهُ الْبُخَارِيُّ فِي «صَحِيحِهِ».

وَهَذَا التَّعَوُّذُ فِيهِ تَفْسِيرٌ لِخُطُورَةِ هَذَا الَّذِي ذَكَرَتْهُ الْآيَةُ، وَتَفَاعُلٌ مَعَ التَّخْوِيفِ الَّذِي فِيهَا.

وَمِنْ صِيَغِ سُؤَالِ رَسُولِ اللهِ ﷺ أَنْ يَقُولَ: «**اللَّهُمَّ إِنِّي أَسْأَلُكَ الْفِرْدَوْسَ الْأَعْلَىٰ**».

وَمِمَّا تَقَدَّمَ يُسْتَنْبَطُ أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ كَانَ يَقِفُ عِنْدَ الْآيَةِ الَّتِي فِيهَا ذِكْرُ الرَّحْمَةِ، وَالْآيَةِ الَّتِي فِيهَا ذِكْرُ الْعَذَابِ، أَوِ الْآيَةِ الَّتِي يُذْكَرُ فِيهَا التَّنْزِيهُ، فَإِنَّهُ بَعْدَ الْوُقُوفِ يَدْعُو اللهَ تَعَالَىٰ.

وَكَذَا فِي الرِّوَايَةِ الثَّانِيَةِ، فَإِنَّ الدُّعَاءَ بِقَوْلِهِ: «**أَعُوذُ بِوَجْهِكَ**» يَدُلُّ عَلَىٰ أَنَّهُ وَقَفَ عِنْدَ الْآيَةِ ثُمَّ دَعَا، فَإِذَا عَلِمْنَا بِهَذَا الْحَدِيثِ مَا فِيهِ مِنَ الْوَقْفِ وَالذِّكْرِ، فَسَنَكُونُ إِذَا عَمِلْنَا بِهِ قَدْ تَدَبَّرْنَا مِئَاتِ الْآيَاتِ الَّتِي ذَكَرَتْ تَنْزِيهَ اللهِ تَعَالَىٰ، وَمِئَاتِ الْآيَاتِ الَّتِي كَرَّرَتْ ذِكْرَ الرَّحْمَةِ، وَمِئَاتٍ مِنَ الْآيَاتِ الَّتِي أَنْذَرَتْ مِنَ الْعَذَابِ، فَيَا لَهُ مِنْ حَدِيثٍ شَامِلٍ، وَإِنْ قَلَّ مَنْ هُوَ بِهِ عَامِلٌ!

كَيْفِيَّةُ تَسْبِيحِهِ ﷺ

وَأَمَّا كَيْفِيَّةُ تَسْبِيحِهِ ﷺ؛ فَمِنْهَا مَا رَوَاهُ الْبُخَارِيُّ بِسَنَدِهِ عَنْ عَائِشَةَ رضي الله عنها قَالَتْ: «**مَا صَلَّىٰ النَّبِيُّ ﷺ صَلَاةً بَعْدَ أَنْ نَزَلَتْ عَلَيْهِ ﴿إذا جاء نصر الله والفتح﴾ إِلَّا وَكَانَ يَقُولُ فِيهَا: سُبْحَانَكَ اللهُ رَبَّنَا وَبِحَمْدِكَ، اللَّهُمَّ اغْفِرْ لِي!**».

وَمِنْهُ يُسْتَنْبَطُ تَدَبُّرُ النَّبِيِّ ﷺ بِالتَّسْبِيحِ، وَاسْتِجَابَتُهُ لِهَذَا فِي قَوْلِهِ: ﴿**فسبح بحمد ربك استغفره**﴾.

وَكَذَلِكَ ثَبَتَ عَنْهُ ﷺ أَنَّهُ كَانَ إِذَا قَرَأَ: ﴿**سبح اسم ربك الأعلىٰ**﴾ [**الأعلىٰ:١**]. قَالَ: «**سُبْحَانَ رَبِّيَ الْأَعْلَىٰ**»، أَوْ قَالَ: «**سُبْحَانَهُ رَبِّيَ الْأَعْلَىٰ**». أَخْرَجَهُ أَحْمَدُ وَأَبُو دَاوُدَ، وَالْحَاكِمُ وَصَحَّحَهُ، وَوَافَقَهُ الذَّهَبِيُّ، وَصَحَّحَهُ الْأَلْبَانِيُّ فِي «صَحِيحِ سُنَنِ أَبِي دَاوُدَ».

وَأَمَّا تَدَبُّرُ الصَّحَابَةِ رضي الله عنهم فَكَانَ بِدَمْعِ الْعَيْنِ، وَاقْشِعْرَارِ الْجُلُودِ، فَقَدْ سَأَلَ عَبْدُ اللهِ بْنُ عُرْوَةَ بْنِ الزُّبَيْرِ جَدَّتَهُ أَسْمَاءَ رضي الله عنها: «كَيْفَ كَانَ يَصْنَعُ أَصْحَابُ رَسُولِ اللهِ ﷺ إِذَا قَرَأُوا الْقُرْآنَ؟

قَالَتْ: كَانُوا كَمَا نَعَتَهُمُ اللهُ تَعَالَىٰ، تَدْمَعُ أَعْيُنُهُمْ، وَتَقْشَعِرُّ جُلُودُهُمْ»، أَخْرَجَهُ سَعِيدُ بْنُ مَنْصُورٍ فِي تَفْسِيرِهِ بِسَنَدٍ صَحِيحٍ.

وَعَنِ الْأَعْمَشِ عَنْ أَبِي الضُّحَىٰ عَنْ مَسْرُوقٍ، عَنْ عَائِشَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا أَنَّهَا قَرَأَتْ هَذِهِ الْآيَةَ: ﴿**فمن الله علينا ووقانا عذاب السموم * إنا كنا من قبل ندعوه إنه هو البر الرحيم**﴾ [**الطور:٢٧-٢٨**]. فَقَالَتْ: «اللَّهُمَّ مُنَّ عَلَيْنَا، وَقِنَا عَذَابَ السَّمُومِ؛ إِنَّكَ أَنْتَ الْبَرُّ الرَّحِيمُ.

قِيلَ لِلْأَعْمَشِ: فِي الصَّلَاةِ؟ قَالَ: نَعَمْ»، أَخْرَجَهُ بْنُ أَبِي حَاتِمٍ بِسَنَدٍ صَحِيحٍ.

وَقَدْ تَأَثَّرَتْ أَسْمَاءُ بِنْتُ أَبِي بَكْرٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا بِهَذِهِ الْآيَةِ وَتَرْدِيدِهَا، وَكَثْرَةِ الِاسْتِعَاذَةِ عِنْدَ ذِكْرِهَا، وَقَدْ تَقَدَّمَ ذِكْرُ هَذَا التَّأَثُّرِ.

إِنَّ هَذَا الدُّعَاءَ مِنْ هَذِهِ الصِّدِّيقَةِ بِنْتِ الصِّدِّيقِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا يُورَدُ هَهُنَا لِكَيْ تَكُونَ مِنْ أُولَئِكَ الْمَذْكُورِينَ فِي قَوْلِهِ تَعَالَىٰ: ﴿إنا كنا من قبل ندعوه أنه هو البر الرحيم﴾؛ لِتَكُونَ فِي عِدَادِهِمْ.

لَقَدْ تَأَثَّرَتِ الْجِنُّ بِهَذَا الْمَنْهَجِ، وَسَلَكَتْهُ، وَعَمِلَتْ بِهِ، وَأَخْبَرَ بِذَلِكَ ﷺ أَصْحَابَهُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، وَأَخْرَجَ الْإِمَامُ أَحْمَدُ مِنْ طَرِيقِ عَبْدِ اللهِ بْنِ الْمُبَارَكِ، وَقُتَيْبَةُ بْنُ سَعِيدٍ، عَنِ ابْنِ لَهِيعَةَ، عَنِ الْحَارِثِ بْنِ يَزِيدَ، عَنْ زِيَادِ بْنِ نُعَيْمٍ، عَنْ مُسْلِمِ بْنِ مِخْرَاقٍ، عَنْ عَائِشَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا قَالَتْ -وَقَدْ ذُكِرَ لَهَا أَنَّ نَاسًا يَقْرَؤُونَ الْقُرْآنَ فِي اللَّيْلَةِ مَرَّةً أَوْ مَرَّتَيْنِ-: «أُولَئِكَ قَرَأُوا وَلَمْ يَقْرَأُوا، كُنْتُ أَقُومُ مَعَ رَسُولِ اللهِ ﷺ لَيْلَةَ التَّمَامِ، فَكَانَ يَقْرَأُ سُورَةَ الْبَقَرَةِ، وَآلَ عِمْرَانَ، وَالنِّسَاءَ، فَلَا يَمُرُّ بِآيَةٍ فِيهَا تَخَوُّفٌ إِلَّا دَعَا اللهَ عَزَّ وَجَلَّ وَاسْتَعَاذَ، وَلَا يَمُرُّ بِآيَةٍ فِيهَا اسْتِبْشَارٌ إِلَّا دَعَا اللهَ عَزَّ وَجَلَّ وَرَغِبَ إِلَيْهِ».

لَقَدْ ذَكَرَ الْحَافِظُ ابْنُ كَثِيرٍ رَحِمَهُ اللَّهُ هَذَا الْحَدِيثَ، ثُمَّ تَلَاهُ بِحَدِيثِ ابْنِ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا -فِي قَوْلِهِ تَعَالَىٰ: ﴿**لا تحرك به لسانك لتعجل به**﴾ -: «كَانَ رَسُولُ اللهِ ﷺ إِذَا نَزَلَ جِبْرِيلُ بِالْوَحْيِ، وَكَانَ مِمَّا يُحَرِّكُ لِسَانَهُ وَشَفَتَيْهِ فَيَشْتَدُّ عَلَيْهِ»، وَالْحَدِيثُ مُتَّفَقٌ عَلَيْهِ.

ثُمَّ قَالَ: «وَفِيهِ دَلِيلٌ عَلَىٰ اسْتِحْبَابِ تَرْتِيلِ الْقُرْآنِ وَالتَّرَسُّلِ فِي الْقِرَاءَةِ مِنْ غَيْرِ هَذْرَمَةٍ، وَلَا سُرْعَةٍ مُفْرِطَةٍ، بَلْ بِتَأَمُّلٍ وَتَفَكُّرٍ، قَالَ اللهُ تَعَالَىٰ: ﴿**كتاب أنزلناه إليك مبارك ليدبروا آياته**﴾ [ص:٢٩]. -وَالْهَذْرَمَةُ: السُّرْعَةُ فِي الْكَلَامِ-.

مِثْلُ هَذِهِ الْقِرَاءَةِ الْمُؤَثِّرَةِ إِذَا الْتَقَىٰ مَعَهَا التَّأَمُّلُ فِي مَقَاصِدِهَا، وَالتَّفَهُّمُ لِمَعَانِيهَا، فَإِنَّهَا تَمَسُّ شِغَافَ الْقَلْبِ، فَيَخْشَعُ وَيَخْضَعُ لِلْخَالِقِ الَّذِي يُخَاطِبُ عِبَادَهُ.

لَقَدْ حَثَّنَا رَسُولُ اللهِ ﷺ أَنْ نَسْأَلَ اللهَ تَعَالَىٰ عِنْدَ قِرَاءَةِ الْقُرْآنِ الْعَظِيمِ، فَقَدْ ثَبَتَ عَنْهُ ﷺ أَنَّهُ قَالَ: «**مَنْ قَرَأَ الْقُرْآنَ لِيَسْأَلَ اللهَ بِهِ**»، وَهَذَا الْحَدِيثُ رَوَاهُ عِمْرَانُ بْنُ حُصَيْنٍ، أَنَّهُ مَرَّ عَلَىٰ قَارِئٍ يَقْرَأُ الْقُرْآنَ ثُمَّ سَأَلَ، فَاسْتَرْجَعَ، ثُمَّ ذَكَرَ الْحَدِيثَ. وَالْحَدِيثُ عِنْدَ التِّرْمِذِيِّ فِي «جَامِعِهِ»، وَحَسَّنَهُ الْأَلْبَانِيُّ.

www.menhag-un.com

أَمْثِلَةٌ عَلَى التَّدَبُّرِ لِآيَاتِ الْقُرْآنِ الْكَرِيمِ

وَمِمَّا يَدُلُّ عَلَىٰ أَنَّ الصَّحَابَةَ قَدْ عَمِلُوا بِهَذَا التَّدَبُّرِ النَّبَوِيِّ، وَذَلِكَ إِذَا مَرَّ بِآيَةٍ فِيهَا رَحْمَة سَأَلَ، أَمَّا الِاسْتِرْجَاعُ فَإِنَّهُ عِنْدَ الْمُصِيبَةِ، فَلَعَلَّهُ عِنْدَ ذِكْرِ الْقَصَصِ وَمَا فِيهَا مِنَ الْمَصَائِبِ وَالصَّبْرِ عَلَيْهَا.

وَهَكَذَا تَدَبَّرَ الصَّحَابَةُ وَالتَّابِعُونَ وَمَنْ بَعْدَهُمْ آيَاتِ الْكِتَابِ الْمَجِيدِ، عَلَىٰ هَذَا الْمِنْهَاجِ النَّبَوِيِّ السَّدِيدِ.

أَخْرَجَ أَبُو نُعَيْمٍ مِنْ طَرِيقِ أَبِي بَكْرِ بْنِ أَبِي شَيْبَةَ، قَالَ: حَدَّثَنَا وَكِيعٌ عَنْ عَبْدِ اللهِ بْنِ مَوْهَبٍ الْخَوْلَانِيُّ الشَّامِيُّ، عَنْ صَالِحِ بْنِ سَعِيدٍ الْمُؤَذِّنِ، قَالَ: «بَيْنَا أَنَا وَعُمَرُ بْنُ عَبْدِ الْعَزِيزِ بِالسُّوَيْدَاءِ، فَأَذَّنْتُ الْآخِرَةَ، فَصَلَّىٰ، ثُمَّ دَخَلَ الْقَصْرَ، فَقَلَّمَا لَبِثَ أَنْ خَرَجَ، فَصَلَّىٰ رَكْعَتَيْنِ خَفِيفَتَيْنِ، ثُمَّ جَلَسَ فَاحْتَبَىٰ، فَافْتَتَحَ بِالْأَنْفَالِ، فَمَا زَالَ يُرَدِّدُهَا وَيَقْرَأُ، كُلَّمَا مَرَّ بِتَخْوِيفٍ تَضَرَّعَ، وَكُلَّمَا مَرَّ بِآيَةِ رَحْمَةٍ دَعَا، حَتَّىٰ أَذَّنْتُ الْفَجْرَ».

وَأَخْرَجَ الْإِمَامُ أَحْمَدُ عَنْ بَهْزٍ، قَالَ: حَدَّثَنِي بْنُ سُلَيْمَانَ، قَالَ: حَدَّثَنَا أَسْمَاءُ بْنُ عُبَيْدٍ عَنْ نَافِعٍ قَالَ: «كَانَ عَبْدُ اللهِ بْنُ عَمْرٍو يَقْرَأُ فِي صَلَاتِهِ فَيَمُرُّ بِالْآيَةِ فِيهَا ذِكْرُ الْجَنَّةِ، فَيَقِفُ عِنْدَهَا، فَيَدْعُو وَيَسْأَلُ الْجَنَّةَ، قَالَ: وَيَدْعُو

وَيَبْكِي، قَالَ: وَيَمُرُّ بِالْآيَةِ فِيهَا ذِكْرُ النَّارِ، فَيَدْعُو وَيَسْتَجِيرُ بِاللهِ ﷻ مِنْهَا»، أَخْرَجَهُ الْإِمَامُ أَحْمَدُ فِي «الزُّهْدِ» لَهُ، بِإِسْنَادٍ حَسَنٍ.

وَأَخْرَجَ ابْنُ أَبِي شَيْبَةَ بِسَنَدِهِ عَنْ مَحْمُودِ بْنِ رَبِيعٍ، عَنِ الصُّنَابِحِيِّ، قَالَ: «صَلَّيْتُ مَعَ أَبِي بَكْرٍ الْمَغْرِبَ، فَدَنَوْتُ مِنْهُ حَتَّىٰ مَسَّتْ ثِيَابِي ثِيَابَهُ، أَوْ يَدِي ثِيَابَهُ، فَقَرَأَ فِي الرَّكْعَةِ الثَّالِثَةِ بِفَاتِحَةِ الْكِتَابِ، وَقَالَ: ﴿**ربنا لا تزغ قلوبنا بعد إذ هديتنا**﴾ [**آل عمران:٨**]؛ ذَلِكَ لِأَنَّ فِي سُورَةِ الْفَاتِحَةِ قَوْلَهُ تَعَالَىٰ: ﴿**اهدنا الصراط المستقيم**﴾».

وَعَنْ مُحَمَّدِ بْنِ يُوسُفَ الْفِرْيَابِيِّ قَالَ: «قَرَأَ عَلَيَّ سُفْيَانُ الثَّوْرِيُّ كِتَابَهُ إِلَىٰ عَبَّادٍ الْخَوَّاصِ، وَفِيهِ: وَإِذَا قَرَأْتَ الْقُرْآنَ أَوْ قُرِئَ عَلَيْكَ الْقُرْآنُ فَافْهَمِ الْقُرْآنَ، وَتَفَكَّرْ فِي كُلِّ حَرْفٍ مِنْهُ».

قَالَ مُجَاهِدٌ: «عَرَضْتُ الْقُرْآنَ ثَلَاثَ عَرْضَاتٍ عَلَىٰ ابْنِ عَبَّاسٍ، أُوقِفُهُ عَلَىٰ كُلِّ آيَةٍ، أَسْأَلُهُ: فِيمَ نَزَلَتْ؟ وَكَيْفَ كَانَتْ؟ وَيَقُولُ لِي: اكْتُبْ، فَأَكْتُبُ».

وَعَنْ عَوْنِ بْنِ عَبْدِ اللهِ قَالَ: «قُلْتُ لِأُمِّ الدَّرْدَاءِ: أَيُّ عِبَادَةِ أَبِي الدَّرْدَاءِ أَكْثَرُ؟ قَالَتْ: التَّفَكُّرُ وَالِاعْتِبَارُ».

وَعَنْ أَبِي الدَّرْدَاءِ رضي الله عنه **قَالَ:** «تَفَكُّرُ سَاعَةٍ خَيْرٌ مِنْ قِيَامِ لَيْلَةٍ».

وَعَنْ نَافِعٍ: «كَانَ ابْنُ عُمَرَ إِذَا قَرَأَ: ﴿**ألم يأن للذين آمنوا أن تخشع قلوبهم لذكر الله**﴾ [**الحديد:١٦**]. بَكَىٰ حَتَّىٰ يَغْلِبَهُ الْبُكَاءُ».

وَعَنْ مَهْدِيٍّ قَالَ: «كُنْتُ لَا أَسْتَطِيعُ سَمَاعَ قِرَاءَةِ سُفْيَانَ الثَّوْرِيِّ مِنْ كَثْرَةِ بُكَائِهِ».

وَعَنْ إِسْحَقَ بْنِ إِبْرَاهِيمَ الطَّبَرِيِّ قَالَ: «مَا رَأَيْتُ أَحَدًا أَخْوَفَ عَلَىٰ نَفْسِهِ وَلَا أَرْجَىٰ لِلنَّاسِ مِنْ فُضَيْلٍ، كَانَتْ قِرَاءَتُهُ حَزِينَةً شَهِيَّةً بَطِيئَةً مُتَرَسِّلَةً، كَأَنَّهُ يُخَاطِبُ إِنْسَانًا، وَكَانَ إِذَا مَرَّ بِآيَةٍ فِيهَا ذِكْرُ الْجَنَّةِ يُرَدِّدُ فِيهَا وَيَسْأَلُ».

وَعَنْ زُهَيْرِ بْنِ صَالِحٍ قَالَ: حَدَّثَنَا أَبِي قَالَ: «سَمِعْتُ أَبِي كَثِيرًا يَتْلُو سُورَةَ الْكَهْفِ، وَكَثِيرًا مَا كُنْتُ أَسْمَعُهُ يَقُولُ: اللَّهُمَّ سَلِّمْ سَلِّمْ!».

وَبَيْنَمَا مُحَمَّدُ بْنُ الْمُنْكَدِرِ ذَاتَ لَيْلَةٍ قَائِمٌ يُصَلِّي إِذَا اسْتَبْكَىٰ، فَكَثُرَ بُكَاؤُهُ حَتَّىٰ فَزِعَ أَهْلُهُ، وَسَأَلُوهُ، فَاسْتَعْجَمَ عَلَيْهِمْ وَتَمَادَىٰ فِي الْبُكَاءِ، فَأَرْسَلُوا إِلَىٰ أَبِي حَازِمٍ فَجَاءَ إِلَيْهِ فَقَالَ: مَا الَّذِي أَبْكَاكَ؟ قَالَ: مَرَّتْ بِي آيَةٌ ﴿**وبدا لهم من الله ما لم يكونوا يحتسبون**﴾ [**الزمر:٤٧**]، فَبَكَىٰ أَبُو حَازِمٍ مَعَهُ، فَاشْتَدَّ بُكَاؤُهُمَا».

وَلَعَلَّهُ بَقِيَ مُتَأَثِّرًا مُتَفَكِّرًا مُتَدَبِّرًا بِهَذِهِ الْآيَةِ الْعَظِيمَةِ حَتَّىٰ مَوْتِهِ، فَقَدْ رَوَىٰ عِكْرِمَةُ بْنُ إِبْرَاهِيمَ عَنِ ابْنِ الْمُنْكَدِرِ أَنَّهُ جَزِعَ عِنْدَ الْمَوْتِ، فَقِيلَ لَهُ: لِمَ تَجْزَعُ؟

قَالَ: أَخْشَىٰ آيَةً مِنْ كِتَابِ اللهِ ﴿**وبدا لهم من الله ما لم يكونوا يحتسبون**﴾، فَأَنَا أَخْشَىٰ أَنْ يَبْدُوَ لِي مِنَ اللهِ مَا لَمْ أَكُنْ أَحْتَسِبُ.

وَقَالَ حَمَّادُ بْنُ سَلَمَةَ: «قَرَأَ ثَابِتٌ الْبُنَانِيُّ: ﴿**أكفرت بالذي خلقك من تراب ثم من نطفة ثم سواك رجلا**﴾ [**الكهف:٣٧**]. وَهُوَ يُصَلِّي صَلَاةَ اللَّيْلِ، يَنْتَحِبُ وَيُرَدِّدُهَا».

وَقَالَ حُمَيْدُ بْنُ عَبْدِ الرَّحْمَنِ الرُّؤَاسِيُّ: «كُنْتُ عِنْدَ أَبِي صَالِحٍ وَرَجُلٌ يَقْرَأُ: ﴿**لا يحزنهم الفزع الأكبر**﴾ [**الأنبياء:١٠٣**]، فَالْتَفَتَ عَلِيٌّ إِلَىٰ أَخِيهِ الْحَسَنِ، وَقَدِ اخْضَرَّ وَاصْفَرَّ، فَقَالَ: يَا حَسَنُ! إِنَّهَا أَفْزَاعٌ فَوْقَ أَفْزَاعٍ.

وَرَأَيْتُ الْحَسَنَ أَرَادَ أَنْ يَصِيحَ، ثُمَّ جَمَعَ ثَوْبَهُ فَعَضَّ عَلَيْهِ حَتَّىٰ سَكَنَ عَنْهُ، وَقَدْ ذَبُلَ فَمُهُ وَاخْضَرَّ وَاصْفَرَّ».

وَرَوَىٰ ابْنُ عَبْدِ الْهَادِي عَنْ صَدَقَةَ بْنِ إِبْرَاهِيمَ الْمَقَابِرِيِّ، قَالَ: «كَانَ لِي خَتْمَةٌ فِي كُلِّ سَنَةٍ أَتَدَبَّرُ فِيهَا الْقُرْآنَ».

خَتْمَةُ تَدَبُّرٍ سِوَىٰ مَا يَكُونُ مِنَ التَّعَبُّدِ بِالتَّرْتِيلِ، هَذَا نَهْجُهُمْ وَمَا كَانُوا عَلَيْهِ، فَخَلَفَ مِنْ بَعْدِهِمْ خَلْفٌ يَهُذُّونَ الْقُرْآنَ هَذَّا هَذَّ الشِّعْرِ، وَيَنْثُرُونَهُ نَثْرَ الدَّقَلِ، وَيَقْرَأُ أَحَدُهُمْ خَتْمَةً مِنْ فَاتِحَتِهَا إِلَىٰ خَاتِمَتِهَا، وَلَا يَدْرِي شَيْئًا مِمَّا قَرَأَ، وَلَا يَفْهَمُ حَرْفًا مِمَّا تَلَاهُ؛ فَإِنَّا لِلَّهِ، وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ.

إِنَّهُ لَا عِصْمَةَ لِلْأُمَّةِ مِنَ الضَّلَالِ إِلَّا بِكِتَابِ اللهِ، وَسُنَّةِ رَسُولِ اللهِ ﷺ، كَمَا قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «**تَرَكْتُ فِيكُمْ مَا إِنْ تَمَسَّكْتُمْ بِهِ لَنْ تَضِلُّوا بَعْدِي أَبَدًا: كِتَابَ اللهِ، وَسُنَّتِي**».

إِذَن؛ الْعِصْمَةُ مِنَ الضَّلَالِ فِي كِتَابِ اللهِ وَسُنَّةِ رَسُولِ اللهِ ﷺ، فَإِذَا كَانَتْ جَمَاهِيرُ الْمُسْلِمِينَ لَا تَفْهَمُ شَيْئًا فِي كِتَابِ اللهِ، وَلَا تَعِي شَيْئًا مِنْ سُنَّةِ رَسُولِ اللهِ ﷺ، فَكَيْفَ تُعْصَمُ مِنَ الضَّلَالِ وَالْإِضْلَالِ؟

فَعَلَيْنَا أَنْ نَأْخُذَ بِهَذَا النَّهْجِ النَّبَوِيِّ الْكَرِيمِ، وَمَا كَانَ عَلَيْهِ الصَّحَابَةُ وَمَنْ تَبِعَهُمْ بِإِحْسَانٍ، وَهُوَ: مُمَارَسَةُ التَّدَبُّرِ فِي كِتَابِ اللهِ تَبَارَكَ وَتَعَالَى، وَمُحَاوَلَةُ الْوُصُولِ إِلَىٰ تَفَهُّمِ آيَاتِ اللهِ جَلَّ وَعَلَا، فَهَذَا هُوَ الْمَطْلُوبُ، فَيَنْبَغِي عَلَيْنَا أَنْ نَحْرِصَ عَلَيْهِ.

وَهَذَا مِثَالٌ آخَرُ فِيهِ تَدَبُّرٌ لِآيَاتٍ مِنَ الْقُرْآنِ، وَاسْتِجْلَاءٌ لِمَا فِيهَا مِنَ الْمَعَانِي وَالْعِبَرِ وَالْأَحْكَامِ وَالْآدَابِ الَّتِي بِهَا تَزْكُو النُّفُوسُ، وَبِهَا يَظْهَرُ أَثَرُ التَّدَبُّرِ فِي ذَلِكَ، وَهُوَ مَا ذَكَرَهُ الْإِمَامُ ابْنُ الْقَيِّمِ رَحِمَهُ اللهُ مِثَالًا لِلتَّدَبُّرِ فِي آيَاتِ الْقُرْآنِ الْكَرِيمِ، لَمَّا ذَكَرَ زَادَ الْمُهَاجِرِ إِلَىٰ رَبِّهِ بِطَاعَتِهِ -سُبْحَانَهُ- وَتَجَنُّبِ مَنَاهِيهِ، وَطَرِيقَةَ ذَلِكَ، فَقَالَ:

«وَرَأْسُ الْأَمْرِ وَعَمُودُهُ فِي ذَلِكَ إِنَّمَا هُوَ دَوَامُ التَّفَكُّرِ وَالتَّدَبُّرِ بِآيَاتِ اللهِ، حَيْثُ تَسْتَوْلِي عَلَىٰ الْفِكْرِ، وَتَشْغَلُ الْقَلْبَ، فَإِذَا صَارَتْ مَعَانِي الْقُرْآنِ مَكَانَ الْخَوَاطِرِ مِنْ قَلْبِهِ، وَجَلَسَ عَلَىٰ كُرْسِيِّهِ، وَصَارَ لَهُ التَّصَرُّفُ، وَصَارَ هُوَ الْأَمِيرَ الْمُطَاعَ أَمْرُهُ، فَحِينَئِذٍ يَسْتَقِيمُ لَهُ سَيْرُهُ، وَيَتَّضِحُ لَهُ الطَّرِيقُ، وَتَرَاهُ سَاكِنًا وَهُوَ يُبَارِي الرِّيحَ، ﴿وترىٰ الجبال تحسبها هامدة وهي تمر مر السحاب صنع الله الذي أتقن كل شيء إنه خبير بما تفعلون﴾.

فَإِنْ قُلْتَ: إِنَّكَ قَدْ أَشَرْتَ إِلَىٰ مَقَامٍ عَظِيمٍ، فَافْتَحْ لِي بَابَهُ، وَاكْشِفْ لِي حِجَابَهُ، وَكَيْفَ تَدَبُّرُ الْقُرْآنِ وَتَفَهُّمُهُ، وَالْإِشْرَافُ عَلَىٰ عَجَائِبِهِ وَكُنُوزِهِ، وَهَذِهِ تَفَاسِيرُ الْأَئِمَّةِ بِأَيْدِينَا، فَهَلْ فِي الْبَيَانِ سِوَىٰ مَا ذَكَرُوهُ؟

قُلْتُ: سَأَضْرِبُ لَكَ أَمْثَالًا تُحْتَذَىٰ تَجْعَلُهَا إِمَامًا لَكَ فِي هَذَا الْمَقْصِدِ:

قَالَ اللهُ تَعَالَىٰ: ﴿**هل أتاك حديث ضيف إبراهيم المكرمين * إذ دخلوا عليه فقالوا سلاما قال سلاما قوم منكرون * فراغ إلىٰ أهله فجاء بعجل سمين * فقربه إليهم قال ألا تأكلون * فأوجس منهم خيفة قالوا لا تخف وبشروه بغلام عليمٍ * فأقبلت امرأته فِي صرة فصكت وجهها وقالت عجوز عقيم * قالوا كذلك قال ربك إنه هو الحكيم العليم**﴾ [الذاريات:٢٤-٣٠].

فَعَهْدِي بِكَ إِذَا قَرَأْتَ هَذِهِ الْآيَةَ، وَتَطَلَّعْتَ إِلَىٰ مَعْنَاهَا، وَتَدَبَّرْتَهَا، تَتَطَلَّعُ مِنْهَا عَلَىٰ أَنَّ الْمَلَائِكَةَ أَتَوْا إِبْرَاهِيمَ فِي صُورَةِ الْأَضْيَافِ يَأْكُلُونَ وَيَشْرَبُونَ، ﴿**وبشروه بغلام عليم**﴾، وَأَنَّ امْرَأَتَهُ عَجِبَتْ مِنْ ذَلِكَ، فَأَخْبَرَتْهَا الْمَلَائِكَةُ أَنَّ اللهَ قَالَ ذَلِكَ، وَلَمْ يَتَجَاوَزْ تَدَبُّرُكَ غَيْرَ ذَلِكَ.

فَاسْمَعِ الْآنَ بَعْضَ مَا فِي هَذِهِ الْآيَاتِ مِنْ أَنْوَاعِ الْأَسْرَارِ، وَكَمْ قَدْ تَضَمَّنَتْ مِنَ الثَّنَاءِ عَلَىٰ إِبْرَاهِيمَ، وَكَيْفَ جَمَعَتِ الضِّيَافَةَ وَحُقُوقَهَا، وَمَا تَضَمَّنَتْ مِنَ الرَّدِّ عَلَىٰ أَهْلِ الْبَاطِلِ مِنَ الْفَلَاسِفَةِ وَالْمُعَطِّلَةِ، وَكَيْفَ تَضَمَّنَتْ عِلْمًا عَظِيمًا وَعِلْمًا جَلِيلًا مِنْ أَعْلَامِ النُّبُوَّةِ، وَكَيْفَ تَضَمَّنَتْ جَمِيعَ صِفَاتِ الْكَمَالِ الَّتِي رَدُّهَا إِلَىٰ الْعِلْمِ وَالْحِكْمَةِ.

وَكَيْفَ أَشَارَتْ إِلَىٰ دَلِيلِ إِمْكَانِ الْمَعَادِ بِأَلْطَفِ إِشَارَةٍ وَأَوْضَحِهَا، ثُمَّ أَفْصَحَتْ عَنْ وُقُوعِهِ.

وَكَيْفَ تَضَمَّنَتِ الْإِخْبَارَ عَنْ عَدْلِ الرَّبِّ وَانْتِقَامِهِ مِنَ الْأُمَمِ الْمُكَذِّبَةِ.

وَتَضَمَّنَتْ ذِكْرَ الْإِسْلَامِ وَالْإِيمَانِ، وَبَيَّنَتِ الْفَرْقَ بَيْنَهُمَا.

وَتَضَمَّنَتْ بَقَاءَ آيَاتِ الرَّبِّ الدَّالَّةَ عَلَىٰ تَوْحِيدِهِ وَصِدْقِ رُسُلِهِ، وَعَلَىٰ الْيَوْمِ الْآخِرِ.

وَتَضَمَّنَتْ أَنَّهُ لَا يَنْتَفِعُ بِهَذَا كُلِّهِ إِلَّا مَنْ فِي قَلْبِهِ خَوْفٌ مِنْ عَذَابِ الْآخِرَةِ، وَهُمُ الْمُؤْمِنُونَ بِهَا، وَأَمَّا مَنْ لَا يَخَافُ الْآخِرَةَ وَلَا يُؤْمِنُ بِهَا فَلَا يَنْتَفِعُ بِتِلْكَ الْآيَاتِ.

فَاسْمَعِ الْآنَ بَعْضَ تَفَاصِيلِ هَذِهِ الْجُمْلَةِ: قَالَ اللهُ تَعَالَىٰ: ﴿**هل أتاك حديث ضيف إبراهيم المكرمين**﴾ [**الذاريات:٢٤**].

افْتَتَحَ سُبْحَانَهُ الْقِصَّةَ بِصِيغَةٍ مَوْضُوعَةٍ لِلِاسْتِفْهَامِ، وَلَيْسَ الْمُرَادُ بِهَا حَقِيقَةَ الِاسْتِفْهَامِ؛ لِهَذَا قَالَ بَعْضُ النَّاسِ: إِنَّ (هَلْ) فِي مِثْلِ هَذَا الْمَوْضِعِ بِمَعْنَىٰ (قَدْ) الَّتِي تَقْتَضِي التَّحْقِيقَ.

وَلَكِنْ فِي وُرُودِ الْكَلَامِ فِي مِثْلِ هَذَا بِصِيغَةِ الِاسْتِفْهَامِ سِرٌّ لَطِيفٌ، وَمَعْنًىٰ بَدِيعٌ، فَإِنَّ الْمُتَكَلِّمَ إِذَا أَرَادَ أَنْ يُخْبِرَ الْمُخَاطَبَ بِأَمْرٍ عَجِيبٍ يَنْبَغِي الِاعْتِنَاءُ بِهِ وَإِحْضَارُ الذِّهْنِ بِهِ صَدَّرَ الْكَلَامَ لَهُ بِأَدَاةِ الِاسْتِفْهَامِ؛ لِتَنْبِيهِ سَمْعِهِ وَذِهْنِهِ لِلْمُخْبَرِ بِهِ، فَتَارَةً يُصَدِّرُهُ بِـ(أَلَا)، وَتَارَةً يُصَدِّرُهُ بِـ(هَلْ)، فَيَقُولُ: هَلْ عَلِمْتَ مَا كَانَ مِنْ كَيْتَ وَكَيْتَ؟ إِمَّا مُذَكِّرًا بِهَا، إِمَّا وَاعِظًا لَهُ مُخَوِّفًا، وَإِمَّا مُنَبِّهًا عَلَىٰ عَظَمَةِ مَا يُخْبِرُ بِهِ، وَإِمَّا مُقَرِّرًا لَهُ.

فَقَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿**هل أتاك حديث موسىٰ**﴾ [**النازعات:١٥**].

وَ﴿**هل أتاك نبأ الخصم**﴾ [**ص:٢١**].

وَ﴿**هل أتاك حديث الغاشية**﴾ [**الغاشية:١**].

وَ﴿**هل أتاك حديث ضيف إبراهيم المكرمين**﴾ [**الذاريات:٢٤**]. مُتَضَمِّنٌ لِتَعْظِيمِ هَذِهِ الْقَصَصِ، وَالتَّنْبِيهِ عَلَىٰ تَدَبُّرِهَا وَمَعْرِفَتِهَا، وَمَعْرِفَةِ مَا تَضَمَّنَتْهُ، فَفِيهِ أَمْرٌ آخَرُ وَهُوَ التَّنْبِيهُ عَلَىٰ أَنَّ إِتْيَانَ هَذَا إِلَيْكَ عَلَمٌ مِنْ أَعْلَامِ النُّبُوَّةِ؛ فَإِنَّهُ مِنَ الْغَيْبِ الَّذِي لَا تَعْلَمُهُ أَنْتَ وَلَا قَوْمُكَ، فَهَلْ أَتَاكَ مِنْ غَيْرِ إِعْلَامِنَا وَإِرْسَالِنَا وَتَعْرِيفِنَا، أَمْ لَمْ يَأْتِكَ إِلَّا مِنْ قِبَلِنَا؟

فَانْظُرْ ظُهُورَ هَذَا الْكَلَامِ بِصِيغَةِ الِاسْتِفْهَامِ، وَتَأَمَّلْ عِظَمَ مَوْقِعِهِ مِنْ جَمِيعِ مَوَارِدِهِ، يَشْهَدْ أَنَّهُ مِنَ الْفَصَاحَةِ فِي ذِرْوَتِهَا الْعُلْيَا.

وَقَوْلُهُ: ﴿**ضيف إبراهيم المكرمين**﴾ مُتَضَمِّنٌ لِثَنَائِهِ عَلَىٰ خَلِيلِهِ إِبْرَاهِيمَ، فَإِنَّ فِي ﴿**المكرمين**﴾ قَوْلَيْنِ:

أَحَدُهُمَا: إِكْرَامُ إِبْرَاهِيمَ لَهُمْ، فَفِيهِ مَدْحُ إِبْرَاهِيمَ بِإِكْرَامِ الضَّيْفِ.

وَالثَّانِي: أَنَّهُمْ مُكْرَمُونَ عِنْدَ اللهِ، كَقَوْلِهِ تَعَالَىٰ: ﴿**بل عباد مكرمون**﴾، وَهُوَ مُتَضَمِّنٌ أَيْضًا لِتَعْظِيمِ خَلِيلِهِ وَمَدْحِهِ، إِذْ جَعَلَ مَلَائِكَتَهُ الْمُكْرَمِينَ أَضْيَافًا لَهُ، فَعَلَىٰ كِلَا التَّقْدِيرَيْنِ فِيهِ مَدْحُ إِبْرَاهِيمَ عليه السلام.

وَقَوْلُهُ: ﴿**قالوا سلاما قال سلام**﴾ مُتَضَمِّنٌ لِمَدْحٍ آخَرَ لِإِبْرَاهِيمَ؛ حَيْثُ رَدَّ عَلَيْهِمُ السَّلَامَ أَحْسَنَ مِمَّا حَيَّوْهُ بِهِ، فَإِنَّ تَحِيَّتَهُمْ بِاسْمٍ مَنْصُوبٍ مُتَضَمِّنٍ لِجُمْلَةٍ فِعْلِيَّةٍ تَقْدِيرُهُ: سَلَّمْنَا عَلَيْكَ سَلَامًا.

وَتَحِيَّةُ إِبْرَاهِيمَ لَهُمْ بِاسْمٍ مَرْفُوعٍ مُتَضَمِّنٌ لِجُمْلَةٍ اسْمِيَّةٍ تَقْدِيرُهُ: سَلَامٌ دَائِمٌ، أَوْ ثَابِتٌ، أَوْ مُسْتَقِرٌّ عَلَيْكُمْ.

وَلَا رَيْبَ أَنَّ الْجُمْلَةَ الِاسْمِيَّةَ تَقْتَضِي الثُّبُوتَ وَاللُّزُومَ، وَالْفِعْلِيَّةَ تَقْتَضِي التَّجَدُّدَ وَالْحُدُوثَ، فَكَانَتْ تَحِيَّةُ إِبْرَاهِيمَ أَكْمَلَ وَأَحْسَنَ.

ثُمَّ قَالَ: ﴿**قوم منكرون**﴾، وَفِي هَذَا مِنْ حُسْنِ مُخَاطَبَةِ الضَّيْفِ.

وَالتَّذَمُّمُ مِنْهُ وَجْهَانِ فِي الْمَدْحِ:

أَحَدُهُمَا: أَنَّهُ حَذَفَ الْمُبْتَدَأَ، وَالتَّقْدِيرُ: أَنْتُمْ قَوْمٌ مُنْكَرُونَ، فَتَذَمَّمَ مِنْهُمْ، وَلَمْ يُوَاجِهْهُمْ بِهَذَا الْخِطَابِ لِمَا فِيهِ مِنَ الِاسْتِيحَاشِ.

وَكَانَ النَّبِيُّ ﷺ لَا يُوَاجِهُ أَحَدًا بِمَا يَكْرَهُهُ، بَلْ يَقُولُ: «**وَمَا بَالُ أَقْوَامٍ يَقُولُونَ كَذَا وَيَفْعَلُونَ كَذَا؟**».

الثَّانِي مِنَ الْوَجْهَيْنِ: قَوْلُهُ: ﴿**قوم منكرون**﴾؛ فَحَذَفَ فَاعِلَ الْإِنْكَارِ، وَهُوَ الَّذِي كَانَ أَنْكَرَهُمْ، كَمَا قَالَ فِي مَوْضِعٍ آخَرَ: ﴿**نَكِرَهُمْ**﴾، وَلَا رَيْبَ أَنَّ قَوْلَهُ: ﴿**مُنْكَرُونَ**﴾ أَلْطَفُ مِنْ أَنْ يَقُولَ: أَنْكَرْتُكُمْ.

وَقَوْلُهُ: ﴿**فراغ إلىٰ أهله فجاء بعجل سمين * فقربه إليهم قال ألا تأكلون**﴾ مُتَضَمِّنٌ وُجُوهًا مِنَ الْمَدْحِ وَآدَابِ الضِّيَافَةِ وَإِكْرَامِ الضَّيْفِ:

مِنْهَا قَوْلُهُ: ﴿**فراغ إلىٰ أهله**﴾، وَالرَّوَغَان: الذَّهَاب بِسرْعَةٍ وَاخْتِفَاءٍ، وَهُوَ يَتَضَمَّنُ الْمُبَادَرَةَ إِلَىٰ إِكْرَامِ الضَّيْفِ مَعَ الِاخْتِفَاءِ الَّذِي يَتَضَمَّنُ تَرْكَ تَخْجِيلِهِ، وَأَلَّا يُعَرِّضَهُ لِلْحَيَاءِ.

هَذَا بِخِلَافِ مَنْ يَتَثَاقَلُ وَيَتَبَادَرُ عَلَىٰ ضَيْفِهِ، ثُمَّ يَبْرُزُ بِمَرْأًىٰ مِنْهُ، وَيَحُلُّ صُرَّةَ النَّفَقَةِ، وَيَزِنُ مَا يَأْخُذُ، وَيَتَنَاوَلُ الْإِنَاءَ بِمَرْأًىٰ مِنْهُ، وَنَحْوُ ذَلِكَ مِمَّا يَتَضَمَّنُ تَخْجِيلَ الضَّيْفِ وَحَيَاءَهُ، فَلَفْظَةُ (رَاغَ) تَنْفِي هَذَيْنِ الْأَمْرَيْنِ.

وَفِي قَوْلِهِ تَعَالَىٰ: ﴿**إلىٰ أهله**﴾ مَدْحٌ آخَرُ، لِمَا فِيهِ مِنَ الْإِشْعَارِ أَنَّ كَرَامَةَ الضَّيْفِ مُعَدَّةٌ، وَهِيَ حَاصِلَةٌ عِنْدَ أَهْلِهِ، وَأَنَّهُ لَا يَحْتَاجُ أَنْ يَسْتَقْرِضَ مِنْ جِيرَانِهِ، وَلَا يَذْهَبَ إِلَىٰ غَيْرِ أَهْلِهِ إِذَا قَرَىٰ الضَّيْفَ، فَإِنَّ قِرَىٰ الضَّيْفِ حَاصِلٌ عِنْدَهُمْ.

وَقَوْلُهُ: ﴿**فجاء بعجل سمين**﴾ **يَتَضَمَّنُ ثَلَاثَةَ أَنْوَاعٍ مِنَ الْمَدْحِ:**

أَحَدُهَا: خِدْمَةُ ضَيْفِهِ بِنَفْسِهِ، فَإِنَّهُ لَمْ يُرْسِلْ بِهِ، وَإِنَّمَا جَاءَ بِهِ بِنَفْسِهِ.

الثَّانِي: أَنَّهُ جَاءَهُمْ بِحَيَوَانٍ تَامٍّ، لَمْ يَأْتِهِمْ بِبَعْضِهِ؛ لِيَتَخَيَّرُوا مِنْ أَطْيَبِ لَحْمِهِ مَا شَاؤُوا.

الثَّالِثُ: أَنَّهُ سَمِينٌ لَيْسَ بِمَهْزُولٍ، وَهَذَا مِنْ نَفَائِسِ الْأَمْوَالِ: وَلَدُ الْبَقَرِ السَّمِينُ، فَإِنَّهُمْ يُعْجَبُونَ بِهِ، فَمِنْ كَرَمِهِ هَانَ عَلَيْهِ ذَبْحُهُ وَإِحْضَارُهُ.

وَقَوْلُهُ: ﴿**إليهم**﴾ مُتَضَمِّنٌ الْمَدْحَ وَأَدَبًا آخَرَ وَهُوَ: إِحْضَارُ الطَّعَامِ بَيْنَ يَدَيِ الضَّيْفِ، بِخِلَافِ مَنْ يُهَيِّئُ الطَّعَامَ فِي مَوْضِعٍ، ثُمَّ يُقِيمُ ضَيْفَهُ فَيُورِدُهُ عَلَىٰ طَعَامِهِ.

وَقَوْلُهُ: ﴿**ألا تأكلون**﴾ فِيهِ مَدْحٌ وَأَدَبٌ آخَرُ، فَإِنَّهُ عَرَضَ عَلَيْهِمُ الْأَكْلَ بِقَوْلِهِ: ﴿**ألا تأكلون**﴾ وَهَذِهِ صِيغَةُ عَرْضٍ مُؤْذِنَةٌ بِالتَّلَطُّفِ بِخِلَافِ مَنْ يَقُولُ: ضَعُوا أَيْدِيَكُمْ فِي الطَّعَامِ، كُلُوا، تَقَدَّمُوا، وَنَحْوَ ذَلِكَ.

وَقَوْلُهُ: ﴿**فأوجس منهم خيفة**﴾؛ لِأَنَّهُ لَمَّا رَآهُمْ لَا يَأْكُلُونَ مِنْ طَعَامِهِ أَضْمَرَ مِنْهُمْ خَوْفًا أَنْ يَكُونَ مَعَهُمْ شَرٌّ، فَإِنَّ الضَّيْفَ إِذَا أَكَلَ مِنْ طَعَامِ رَبِّ الْمَنْزِلِ اطْمَأَنَّ إِلَيْهِ وَأَنِسَ بِهِ.

فَلَمَّا عَلِمُوا مِنْهُ ذَلِكَ قَالُوا: ﴿**لا تخف وبشروه بغلام عليم**﴾ وَهَذَا الْغُلَامُ إِسْحَقُ لَا إِسْمَاعِيلُ؛ لِأَنَّ امْرَأَتَهُ عَجِبَتْ مِنْ ذَلِكَ فَقَالَتْ: ﴿**عجوز عقيم**﴾ لَا يُولَدُ لِمِثْلِي؛ فَأَنَّىٰ لِي بِالْوَلَدِ؟!

وَأَمَّا إِسْمَاعِيلُ فَإِنَّهُ مِنْ سُرِّيَّتِهِ هَاجَرَ، وَكَانَ بِكْرَهُ وَأَوَّلَ وَلَدِهِ، وَقَدْ بَيَّنَ سُبْحَانَهُ هَذَا فِي سُورَةِ هُودٍ فِي قَوْلِهِ تَعَالَىٰ: ﴿**فبشرناها بإسحق ومن وراء إسحق يعقوب**﴾، وَهَذِهِ هِيَ الْقِصَّةُ نَفْسُهَا.

وَقَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿**وأقبلت امرأته فِي صرة فصكت وجهها**﴾ فِيهِ بَيَانُ ضَعْفِ عَقْلِ الْمَرْأَةِ، وَفِيهِ عَدَمُ ثَبَاتِهَا، إِذْ بَادَرَتْ إِلَىٰ النُّدْبَةِ فَصَكَّتْ وَجْهَهَا عِنْدَ هَذَا الْإِخْبَارِ.

وَقَوْلُهُ: ﴿**عجوز عقيم**﴾ فِيهِ حُسْنُ أَدَبِ الْمَرْأَةِ عِنْدَ خِطَابِ الرِّجَالِ، وَاقْتِصَارُهَا مِنَ الْكَلَامِ عَلَىٰ مَا يَتَأَدَّىٰ بِهِ الْحَاجَةُ، فَإِنَّهَا حَذَفَتِ الْمَبْتَدَأَ، وَلَمْ تَقُلْ: أَنَا عَجُوزٌ عَقِيمٌ، وَاقْتَصَرَتْ عَلَىٰ ذِكْرِ السَّبَبِ الدَّالِ عَلَىٰ عَدَمِ الْوِلَادَةِ، لَمْ تَذْكُرْ غَيْرَهُ، وَأَمَّا فِي سُورَةِ هُودٍ، فَذَكَرَتِ السَّبَبَ الْمَانِعَ مِنْهَا وَمِنْ إِبْرَاهِيمَ، وَصَرَّحَتْ بِالْعَجَبِ.

وَقَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿**قالوا كذلك قال ربك**﴾ مُتَضَمِّنٌ لِإِثْبَاتِ صِفَةِ الْقَوْلِ لَهُ.

وَقَوْلُهُ: ﴿**إنه هو الحكيم العليم**﴾ مُتَضَمِّنٌ لِإِثْبَاتِ صِفَةِ الْحِكْمَةِ وَالْعِلْمِ، اللَّذَيْنِ هُمَا مَصْدَرُ الْخَلْقِ وَالْأَمْرِ، فَجَمِيعُ مَا خَلَقَهُ سُبْحَانَهُ صَادِرٌ عَنْ عِلْمِهِ وَحِكْمَتِهِ، وَكَذَلِكَ أَمْرُهُ وَشَرْعُهُ مَصْدَرُهُ عَنْ عِلْمِهِ وَحِكْمَتِهِ، وَالْعِلْمُ وَالْحِكْمَةُ مُتَضَمِّنَانِ لِجَمِيعِ صِفَاتِ الْكَمَالِ.

فَالْعِلْمُ يَتَضَمَّنُ الْحَيَاةَ وَلَوَازِمَ كَمَالِهَا مِنَ الْقَيُّومِيَّةِ وَالْقُدْرَةِ وَالْبَقَاءِ، وَالسَّمْعِ وَالْبَصَرِ، وَسَائِرِ الصِّفَاتِ الَّتِي يَسْتَلْزِمُهَا الْعِلْمُ التَّامُّ.

وَالْحِكْمَةُ تَتَضَمَّنُ كَمَالَ الْإِرَادَةِ وَالْعَدْلَ وَالرَّحْمَةَ وَالْإِحْسَانَ وَالْجُودَ وَالْبِرَّ، وَوَضْعَ الْأَشْيَاءِ فِي مَوَاضِعِهَا عَلَىٰ أَحْسَنِ وُجُوهِهَا، وَيَتَضَمَّنُ الْإِرْسَالَ، وَإِثْبَاتَ الثَّوَابِ وَالْعِقَابِ.

كُلُّ هَذَا الْعِلْمِ مِنَ اسْمِهِ الْحَكِيمِ، كَمَا هِيَ طَرِيقَةُ الْقُرْآنِ فِي الِاسْتِدْلَالِ عَلَىٰ هَذِهِ الْمَطَالِبِ الْعَظِيمَةِ بِصِفَةِ الْحِكْمَةِ، مَعَ الْإِنْكَارِ عَلَىٰ مَنْ يَزْعُمُ أَنَّهُ خَلَقَ الْخَلْقَ

عَبَثًا وَسُدًى وَبَاطِلًا، فَحِينَئِذٍ صِفَةُ حِكْمَتِهِ تَتَضَمَّنُ الشَّرْعَ وَالْقَدَرَ وَالثَّوَابَ وَالْعِقَابَ؛ لِهَذَا كَانَ أَصَحُّ الْقَوْلَيْنِ أَنَّ الْمَعَادَ يُعْلَمُ بِالْعَقْلِ، وَأَنَّ السَّمْعَ وَرَدَ بِتَفْصِيلِ مَا يَدُلُّ الْعَقْلُ عَلَىٰ إِثْبَاتِهِ.

وَمَنْ تَأَمَّلَ طَرِيقَةَ الْقُرْآنِ وَجَدَهَا دَالَّةً عَلَىٰ ذَلِكَ، وَأَنَّهُ سُبْحَانَهُ يَضْرِبُ لَهُمُ الْأَمْثَالَ الْمَعْقُولَةَ، الَّتِي تَدُلُّ عَلَىٰ إِنْكَارِ الْمَعَادِ تَارَةً، وَوُقُوعِهِ أُخْرَىٰ، فَيَذْكُرُ أَدِلَّةَ الْقُدْرَةِ الدَّالَّةَ عَلَىٰ إِنْكَارِ الْمَعَادِ، وَأَدِلَّةَ الْحِكْمَةِ الْمُسْتَلْزِمَةَ لِوُقُوعِهِ.

وَمَنْ تَأَمَّلَ أَدِلَّةَ الْمَعَادِ فِي الْقُرْآنِ وَجَدَهَا كَذَلِكَ، مُغْنِيَةً -بِحَمْدِ اللهِ- عَنْ غَيْرِهَا، كَافِيَةً شَافِيَةً، مُوصِلَةً إِلَىٰ الْمَطْلُوبِ بِسُرْعَةٍ، مُتَضَمِّنَةً لِلْجَوَابِ عَنِ الشُّبَهِ الْعَارِضَةِ لِكَثِيرٍ مِنَ النَّاسِ.

قَالَ الْإِمَامُ ابْنُ الْقَيِّمِ رَحِمَهُ اللهُ: «وَإِنْ سَاعَدَ التَّوْفِيقُ كَتَبْتُ فِي ذَلِكَ سِفْرًا كَبِيرًا؛ لِمَا رَأَيْتُ فِي الْأَدِلَّةِ الَّتِي أَرْشَدَ إِلَيْهَا الْقُرْآنُ مِنَ الشِّفَاءِ وَالْهُدَىٰ، وَسُرْعَةِ الْإِنْصَافِ وَحُسْنِ الْبَيَانِ، وَالتَّنْبِيهِ عَلَىٰ مَوَاضِعِ الشُّبَهِ، وَالْجَوَابِ عَنْهَا بِمَا يَنْفَلِجُ لَهُ الصَّدْرُ وَيَكْثُرُ مَعَهُ الْيَقِينُ، بِخِلَافِ غَيْرِهِ مِنَ الْأَدِلَّةِ، فَإِنَّهَا عَلَىٰ الْعَكْسِ مِنْ ذَلِكَ، وَلَيْسَ هَذَا مَوْضِعَ التَّفْصِيلِ».

وَالْمَقْصُودُ أَنَّ صُدُورَ الْخَلْقِ وَالْأَمْرِ عَنْ عِلْمِ الرَّبِّ وَحِكْمَتِهِ، وَاخْتَصَّتْ هَذِهِ الْقِصَّةُ بِذِكْرِ هَذَيْنِ الِاسْمَيْنِ لِاقْتِضَائِهِمَا لِتَعَجُّبِ النُّفُوسِ مِنْ تَوَلُّدِ مَوْلُودٍ بَيْنَ أَبَوَيْنِ لَا يُولَدُ لِمِثْلِهِمَا عَادَةً، وَخَفَاءِ هَذَا الْعِلْمِ بِسَبَبِ هَذَا الْإِيلَادِ، وَكَوْنِ الْحِكْمَةِ اقْتَضَتْ جَرَيَانَ هَذِهِ الْوِلَادَةِ عَلَىٰ غَيْرِ الْعَادَةِ الْمَعْرُوفَةِ.

فَذَكَرَ فِي الْآيَةِ اسْمَ الْعِلْمِ وَالْحِكْمَةِ الْمُتَضَمِّنِ لِعِلْمِهِ سُبْحَانَهُ بِسَبَبِ هَذَا الْخَلْقِ، وَغَايَتِهِ، وَحِكْمَتِهِ، فِي وَضْعِهِ مَوْضِعَهُ، مِنْ غَيْرِ إِخْلَالٍ بِمُوجِبِ الْحِكْمَةِ.

ثُمَّ ذَكَرَ سُبْحَانَهُ قِصَّةَ الْمَلَائِكَةِ فِي إِرْسَالِهِمْ لِهَلَاكِ قَوْمِ لُوطٍ، وَإِرْسَالِ الْحِجَارَةِ الْمُسَوَّمَةِ عَلَيْهِمْ، وَفِي هَذَا مَا يَتَضَمَّنُ تَصْدِيقَ رُسُلِهِ، وَإِهْلَاكَ الْمُكَذِّبِينَ لَهُمْ، وَالدَّلَالَةَ عَلَىٰ الْمَعَادِ وَالثَّوَابِ وَالْعِقَابِ؛ لِوُقُوعِهِ عِيَانًا فِي هَذَا الْعَالَمِ.

وَهَذَا مِنْ أَعْظَمِ الْأَدِلَّةِ الدَّالَّةِ عَلَىٰ صِدْقِ رُسُلِهِ لِصِحَّةِ مَا أَخْبَرُوا بِهِ عَنْ رَبِّهِمْ.

جامعة منهاج النبوة
www.menhag-un.com

جامعة
منهاج النبوة
www.menhag-un.com